

من كتب الشرق والغرب

IL FAUT DE TOUT POUR FAIRE UN MONDE

ETHEMBLE

لا بد أن نأخذ من كل شيء جانباً ، لننشئ عالماً *

وإن مارسل أرلان الذى استاز بمقالاته فى النقد قبل أن ينال جائزة جيونكور بكتابه *L'Ordre* ، والذى كان يدير قسم النقد القصصى بالمجلة الجديدة الفرنسية *Nouvelle Revue Française* أيام جان بولان ، لقاص يدير يستطيع الحكم على آثاره الأدبية .
حقاً إن الأسر لأمر زجاج نافذة ذى صور متباينة ألوانها ، ولكنها بفضل الضوء المنسكب تطبع فى النفس صورة ساحرة غامضة مؤتلفة ألوانها .

« لا بد أن نأخذ من كل شيء جانباً ، لننشئ عالماً . » تلك كلمة سائرة ، تكاد نكون قولاً مأثوراً ، وذلك حق أو على الأقل كل شيء يسير كما لو كان من اللازم أن نأخذ جانباً من كل شيء وبخاصة جانباً من الشر ، لننشئ عالماً . وفى الكتاب ثلاث أقاصيص تحمل هذا العنوان العام : المغسل ، السيد ليونار ، فى بيت الأرملة . فهذه الأقاصيص الثلاث تعرض علينا مشكلة الشر المعقدة فى صورة حية مهما تباين ما نصادفه فيها من شخصيات ، أطفالاً كانوا أو مراهقين أو شيوخاً . وهو يعرض لهذه المشكلة فى تحفظ دون أن يظهر شيئاً من تلك الوحشية التى عودتنا إياها خلال مائة عام القصص المسماة «واقعية» .

عرف قراء « الكاتب المصرى » مارسل أرلان ، حين ترجمت فيه لهذا المؤلف ذى الأسلوب الرائق ، قصتان صغيرتان .
والآن ، وقد قرأت هاتين الأقصصيتين فى الكتاب « لا بد أن نأخذ من كل شيء جانباً ، لننشئ عالماً » الذى يضمهما فى وحدة أجدها ألا تنفصلا عنها ، فإني أكاد أستشعر الأسف لأن جانباً من جمهور القارئى بالعربية ، قد عرف هذا الكتاب الرائع على ذلك النحو . ذلك لأنى أحسست أن الكتاب (كما يقول مارسل أرلان بحق فى مقدمته القصيرة) : « ليس مجموعة من الأقاصيص . فكل أقصوصة فيه قد أنشئت وكتبت لتشغل موضعاً معيناً فى الكتاب سواء أكان ذلك من ناحية المكان ، أو الجو الذى تعيش فيه الشخصيات ، أو موضوع الشخصيات ، أو طرائقهم فى الحديث أو حتى من ناحية حجم الأقصوصة ذاتها .
«وعنوان إحدى تلك الأقاصيص «لزوجاج نافذة» يمكن أن يكون عنواناً للكتاب بأكمله . ذلك لأن تلك الأقاصيص تحاكي نقوش زجاج النوافذ فى كنيسة ريفية ومهما بدت شخصيات متواضعة سيئة التصرف ، فإني أحس أنها لا تقل كالا ولا جيشاناً عن أبطال المأسى . »

* كتب هذا المقال خاصة لمجلة «الكاتب المصرى» .

«البحار الحارس» . ويكتبه «أرض الوطن» و «زليل الصحراء» و «أجل أيامنا» أخذ يسلك سبيل الحكمة . فهو راض بحاله في القرية قريبا من الأرض ، ومن القوم المتواضعين الذى يعملون فيها ، وهو يوائم بين نفسه وبين الحياة وما فيها من عظمة . وكما يسود الموت والحياة حياتنا ، كذلك هما يسودان أقاصيصه . ففيها ترى أنواعا من الحب : الحب الزوجى المشروع ، والحب غير المشروع . وفيها تلقى الأرملة والفتاة الأم . وهناك حتى المرأة العاجزة التى تموت على فراشها الشمس وهى تلد أول طفل لها . وهناك الخطيئة أيضا ، خطيئة الشرطي . وهكذا نلقى كل أنواع الحب . ذلك لأن الريف الفرنسى مربي دافئ تنمو فيه أغرب العواطف . ثم ليس من الواجب أن نأخذ بطرف من كل شئ لننشئ علما ؟

ولا بد أيضا من الموت ، من كثير من الموت لتصحيح ما تؤدي إليه العواطف العنيفة من أخطاء . لا بد من موت بقدر عدد الأحياء (١) . والموت في القرية عديدة صوره ، شأنه في ذلك شأن الحب ؛ فهناك السرطان ، وعودة الميت إلى مسقط رأسه . وهناك موت العريبد ، ذلك الموت الجميل في شناعته . وهناك موت المرأة المعجوز نورين ، ذلك الموت الجميل حقا . وهناك الدور الذى تلعبه المقبرة في الأقصوصة «على القبور» . ففيها ترى المرأة المعجوز التى لا تحيا إلا بموتها . فهى تعمل وتنظف وتجلو : «كان الواجب أن تضم هذه القبور العشرة فتنتوى في قبر واحد ضخم يسود المقبرة كلها ، فيه كهوف وعليه صلبان منحوتة ، وغطاء من الرخام

فنحن لا نكاد نستشعر الواقعية في أقاصيصه وهو لا يذكر القلق الجسدى إلا نجاة وفى قصد ، وخاصة في أقصوصة «المفسل» فيصل بذلك إلى التأثير في نفوسنا . وربما استطعنا أو يجب علينا أن نقول إن هذه النظرة لعالم الشر لا تتفق ومبدأ الكاتب المسيحى الذى لا يستطيع مطلقا أن يوائم بين نفسه وجسده . وفى الحق أنه مهما خفت مسيحية أرلان فانه لا يستطيع بنظرته إلى الشر ، أن ينكر إلى أى حد تحيا الأخلاق المسيحية المحرمة من المراسم لدى أكثر الفرنسيين حرية في الفكر . ذلك لأن من يعيش مثله في القرية ويعرف الريف يجد مظهرها آخر من مظاهر الشر والخطيئة لا يقل عن غيره عنفا ، ألا وهو حال الأجراء حين تقارن بحال المزارعين ، أو حال المالك الذى يحنى غلات أرض تزرعها أيد كليلة خسنة تكاد تشلها حركات العمل . وهناك أخيرا «الخبراء المهندسون» الذين يتطفلون على الأجير والمالك معا ، ودارهم التى تعد مع دار طبيب القرية والكاتب والصيدلى ، أرفع دور في القرية ، لا تقوم إلا على عرق الفلاح . فإذا انتهينا من ذكر ذلك التحفظ الهام (ومارسل أرلان يقول ، دون أن يذكر سببا ، حتى لو تغير نظام الأرض فان عواطف أهل الأرض لن تتغير كثيرا أو قليلا) . فلنعترف أن لهذا الكتاب مزايا تجعله من خير ما كتب أرلان .

لقد بدأ الجميع بأن ثار على النظام الاجتماعى ونظام العالم (كتب L'ordre عام ١٩٢٩) ، ثم فعل ما يفعله كل من يقدرون أنفسهم فاستشعر إغراء المطلق من الأشياء ، واتمس في حب الزوجين ربا إنسانيا لعاطفته اللائكية . فأخرج

فأربعا ليختطف من يدي حبيبته السم الذي كانت توشك أن تتناوله . نعم ! لم يكن صاحبنا شرطيا عاديا . لقد كان رئيسا « لنقطة » البوليس . فالرحمة الالهية تتدارك إذن أكثر الناس تواضعا . وزيادة على ذلك فهناك الله ليساعد القرية ، هناك عدالة الله . فعند ما تموت عشيقة باشوم شر ميتة ، تقول القرية : « هذا عدل الله » . وعند ما يلعب سيزار مع منافسه دورا قدرا ، يقولون : « نعم هناك عدالة في الحياة » . فاذا أصابت الصاعقة ابنا بارا في الرابعة والعشرين ، صاح القوم : « الموت يذهب بخيارنا » ، وتلك إرادة الله . وهذا لا يمنع لحسن الحظ أن تبلغ نورين التسعين وتتجاوزها . أليس الله عادلا ؟

فلا يأس لدى هؤلاء الناس ، وحياء الكاتب يضيف على تلك الأفاصيل المرحية المكشوفة تقريبا « زواج قيصر » ، « الغرفة » *La Chambre* شيئا من التحفظ والوثام والسلام ، وجوا من الشعر أحيانا مما يتيح لكل شئ أن يكون مستساغا .

كلا ! ليس هذا العالم يائسا ، إنه عالم ينتظر شيئا ما ! أى شئ ؟ ينتظر عالما آخر إن شئت ، ينتظر ذلك الفردوس الفاني قليلا قليلا حيث لم تستطع نورين — بعد أن بلغت زوجها الميت ولاحظت أنه ما زال يمشى وهو يضبط حذائه — أن تجعل صوتها يصل إلى مسامع رجلها : « وكانت قد نسيب ما تريد أن تقوله . ذلك لأنه لم يبق في وضع النهار من تلك العجوز الضئيلة التي ماتت في أول الصباح ، إلا شبحا إنسانيا ضئيلا ، متوترا بعض الشئ » ، قبيحا شيئا ما ، شبحا أخذ يشحب ويدوب ثم اختفى . »

تعلموه المشاعل والبيجان الخالدة . وأزهار الكريزانتيم . عندئذ تستطيع تلك العجوز أن تؤدي في كرامة ، صلاتها الأليمة من أجل الموتى ، تلك الصلاة التي فثنت فيها . قبر ضخم يجيد فيه الأسرة كلها ملجأ أمينا . الأسرة كلها حتى أنسابها : زوجة الابن مثلا . لا أحد يرجو لها شرا . ولكن المسكينة رقيقة الصحة . والابن الأصغر حين يحين حينه ، بعد عمر طويل (مهما بلغ به العقوق فسندفقه كابن من أبائنا) . والابن الأكبر مع شديد الأسف ، فذلك أمر لا بد منه ، الابن الأكبر ، رئيس الأسرة . قبر ضخم فخم تكمل فخامته بموتها هي .

العسل ، والحب ، والشر ، والموت ، وفتيان يموتون في ريعان شبابهم ، وكهول يهربون وهم في عبثهم الصبياني ، وخيار ومتوسطون وأشرار . جانب من كل شئ لننشئ ذلك العالم : عالم قرية فرنسية . ويقول مارسيل أرناند : « والعالم الذي ينشئه كل أولئك قد يبدو محزنا شيئا ما ، ومجازفاتهم ومصابرهم قد تكون قاسية شيئا ما . ولكن هذا العالم رغم كل ذلك لا يدعو إلى اليأس » . وذلك صحيح ؛ أولا لأن مارسيل أرناند يدع في إبراز ناحية الرحمة الالهية في كل حياة يعرضها مهما كانت متواضعة ، تلك الرحمة التي تتدارك الحياة فتتقدها . وانظر إلى قصة ذلك الشرطي الحشن الذي خطب فتاة أحببت شخصا آخر كان قد اختفى ، وانظر إليه حين يذهب في الليلة السابقة للزفاف ، يدفعه نداء تلك الرحمة الالهية التي همست في أذنه « حان الوقت أيها الشرطي فأسرع » فاذا بهذا الحشن الثقيل يقفز درجات السلم أربعا